

الحركة التعاونية في مصر

ومهمة التعاون المنزلى فيها

للدكتور إبراهيم رشاد بك

مدير التعاون

ثلاثون عاما مضت منذ قامت الحركة التعاونية في مصر على يد رجل القانون والإصلاح عمر لطفي ، يناصره أبو الفلاح الأمير " حسين كامل " (السلطان حسين فيما بعد) . وفي خلال هذه الحقبة من الزمن صادفت الحركة نجاحا وإخفاقا ، تقدما وتأخرا ، إقبالا وإعراضا ، ولا شأن لنا الآن في التعرض لسبب هذا أو ذاك .

على أننا نقول إن الحركة التعاونية المصرية مرت في تلك المدة بأدوار ثلاثة :

الدور الأول هو الدور الشعبي الذي استمر من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩٢٣ ، والدور الثاني هو دور الحكومة من سنة ١٩٢٣ إلى سنة ١٩٢٧ ، والدور الثالث هو الدور الحكومي الشعبي الذي بدأ من سنة ١٩٢٧ وما زلنا فيه حتى الآن . وسأقصر كلامي هنا على الدور الأخير الذي هو في الواقع أكثر الأدوار الثلاثة بركة ، ففيه تضافرت جهود الأمة والحكومة في إقامة صرح حركة تعاونية عامة ، احتلت مكانها بين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي يعم نفعها الجميع .

وهناك عهود ارتبط بها الشعب والحكومة فأصبعا مسئولين معا مسئولية قومية عن الوصول بهذه الحركة إلى جادة النجاح ، أما هذه العهود فهي :

(أولا) إنشاء مجلس التعاون الأعلى ، وقد مثل في عضويته مجلسا الشيوخ والنواب ورجال الاقتصاد والزراعة والمسال والإدارة والتعاون ، يستشير الوزير المختص في وضع السياسة العليا للحركة .

(ثانيا) جعل الإدارة الحكومية المشرفة على الحركة التعاونية في نظامها وروحها كأنها " اتحاد تعاوني " وثيق التمسك بالجمعيات وأعضائها ، يتبادل معهم الرأي في كل ما يعود عليهم بالخير والمنفعة .

(ثالثا) اشتراك الحكومة والشعب في تمويل الحركة بشكل يزداد كل عام اقتربا من الأوضاع التعاونية الصحيحة ، بحيث لا يمضى وقت طويل حتى يكون للحركة بنيتها التعاوني المركزي .

إن هذا التضامن بين الحكومة والشعب في مصر الحديثة العهد بالأنظمة الديمقراطية الاقتصادية كالحركة التعاونية هو أقوى كفيل بنجاحها ، فإن الشعب وحده في حالته الحاضرة لا يقدر أن يستأثر بقيادة تلك الحركة ، والحكومة كذلك بأوضاعها البيروقراطية لا يمكنها أن تنفرد بتسيير التعاون الذي هو شعبي أصلا والشعبية منه بمثابة الروح من الجسد .

نشطت الحركة على هذا الوضع ، ونجحنا في إيجاد ٨٠٠ جمعية تعاونية في مختلف أنحاء البلاد بلغ عدد أعضائها نحو ١٠٠,٠٠٠ عضو ، ورأس مالها المسمم المدفوع ٢٢٠,٠٠٠ جنيه ومالها الاحتياطي ٦٠,٠٠٠ جنيه ، وقيمة معاملاتها السنوية مليون جنيه .

غير أن العنصر الزراعي من هذه الحركة هو الغالب لدرجة أصبح معها التعاون وكأنه يسير على ساق واحدة بدلا من ساقين ، فوجب والحالة هذه أن نقومه بحيث يوازن جانبه الاستهلاكى جانبه الإنتاجى وكلاهما من الأهمية بمكان ، ومع أن السواد الأعظم من الأهالي يشتغل بالزراعة فإن الجميع مستهلكون وهؤلاء وأولئك محتاجون إلى خدمات التعاون الجلية .

يتضرر الناس — وخصوصا ذور الدخل المحدود — من غلاء المعيشة ، ويتلمس كثير من التجار أسبابا لخفض الأرباح الفادحة . ولولا يقظة الحكومة لأصبح الشعب تحت رحمتهم . ونحن لا ننسى ما قامت به الحكومة في الحرب العظمى ثم في هذه الحرب من عمل حاسم للضرب على أيدي الطامعين من التجار . غير أن تهالكهم على طلب الربح يدفعهم إلى التلاعب ، ويفريهم بالتحايل على الإفلات من طائلة القانون ، مما يصعب معه أو يستحيل ضبط الأمور الضبط كله . ولو كان في البلاد الكفائية من الجمعيات التعاونية المنزلية التي بلغت درجة محمود من الانتشار والقوة لانتظمت الحالة من تلقاء نفسها ، لأن مهمة الجمعيات التعاونية هي أن تبقى الأسعار عامة في المستوى العادل ولا تتعداه ، وبذلك يضطر الجميع بحكم أصول التجارة إلى الترام ذلك المستوى قدر الإمكان . ولست أقول هذا استنادا إلى نظريات اقتصادية أو خبرة أجنبية فحسب ، بل على خبرة البلاد نفسها في خلال الحرب العظمى حيث كانت الجمعيات التعاونية المنزلية على قلة عددها أكبر عون لمصاحبة التموين على أداء مهمتها ، ويؤيدنى كذلك الواقع الملموس فعدنا ٥٠ جمعية تعاونية منزلية قيمة معاملاتها نحو ١٥٠,٠٠٠ جنيه في السنة وهي سائرة بنجاح مطرد ، والأمل معقود على تدعيمها والاكثار من أمثالها حتى يأتي يوم لا نعود نخشى فيه تسلط التجار على توريد حاجتنا المعيشية ، وقد أجدت جمعياتنا

المنزلية القائمة نفعا كبيرا في مكافحة الذلاء في مناطق عملها ، وصارت تورد لأعضائها ولأهالي صنوف البقالة والخضر والفاكهة واللحوم والوقود والمنسوجات والخردوات . وقد ساهمت هذه الجمعيات كذلك بنصيب في الناحية الاجتماعية فأقام بعضها أندية وملاعب للرياضة ، وأقامت جمعية الاسماعيلية مثلا دارا للسينة تعد أنخم دورها في تلك المدينة ، فضلا عن مساهمتها جميعا في مؤاساة المعوزين من أعضائها وأسرتهم .

إن ما نطلبه من جمعية التعاون المنزلى لا يعدو أن تكون بضائعها من النوع الذى ينطبق عليه المثل العامى القائل : " رخيص وكويس وابن ناس " أى معتدل السعر جيد النوع غير ناقص . وهذا بعينه الذى ينطبق على بضاعة التاجر الشريف البعيد النظر الذى يغار على سمعته ويحافظ على بقاء تجارته . ومثل هذا التاجر لا يخاف من نزول جمعية التعاون إلى الميدان إلا بمقدار ما يخشاه تاجر مثله ، ففى ميدان التجارة متسع للجميع .

وفى المدن التجارية الكبرى مثل مانشستر وغيرها من المدن الأوروبية تجدد العدد الوفير من المحال التجارية إلى جانب الجمعيات المنزلية ، وإنما يخشى التعاون ويخاف من مزاحمته ذلك التاجر الذى يعتمد على الغش ، والذى يستغل الجمهور ، والذى يتحين الفرص للاستزادة من ربح غير مشروع .

ولقد ذكرت لكم طرفا من أعمال جمعياتنا المنزلية القائمة ، أما جمعية القاهرة فإن البضائع التى ستقدمها ستشمل كل ما تحتاج إليه المنازل من مأكل وملبس وأدوات وأثاث ، وستخذ لنفسها محلا مركزيا كبيرا وسط العاصمة ، وتفتح لها فروعا فى مختلف الأحياء حسب الحاجة إليها ، والمأمول أن يكون ذلك المحل المركزى وتلك المحال الفرعية باللغة القاية من حسن النظام ، وجمال التنسيق ، وتيسير التوزيع بحيث تضارع أرق المحال التجارية فى العاصمة .

وهنا استثنى من البضائع المنزلية التى توردها الجمعية الخمر بأنواعها ، فإن المتفق عليه بين التعاونيين فى العالم أن تحجم الجمعيات عن اقتناء الخمر وتوريدها لما فيها من ضرر بالصحة والأخلاق ، ولأن فى توزيع "عائد" على شرائها تشجيعا خفيا على الإكثار من تناولها .

وهناك مبدآن أساسيان من مبادئ التعاون المنزلى سوف تتبعهما جمعية القاهرة ، ولن تحيد عنهما بحال : وهما البيع تقدا والبيع بسعر السوق ، أما الأول فلأن البيع بالأجل يفتح للأعضاء باب الاستدانة ، ويغريهم بشراء ما يزيد على حاجتهم الحقيقية ، وفى ذلك إرباك لحالتهم المالية ثم إرباك لمالية الجمعية فى النهاية . وأما البيع بسعر السوق فالحكمة فيه أن الجمعية لا ترمى إلى مزاحمة التجار ولا تريد أن تدخل معهم فى مسابقة لخفض الأسعار إلى ما دون الحد المشروع ، على أن توزع فى ختام السنة "عائدا" على الأعضاء من صافى الربح بنسبة تعاملهم فتكون لهم بمثابة صندوق ادخار .

وإذا جاز لنا - جدلا - أن نفعل دور المرأة في حركة عامة فلا يجوز ذلك في حركة التعاون المتزلي بوجه خاص لأنها هي مدبرة البيت و "صاحبة الكرار" ، فإذا لم تكسبها الجمعية التعاونية المتزلية فقد ضاع عليها "زبون صقع" لا يعوض بحال . والذي يهمننا من عضويتها في الجمعية قبل كل شيء أن تقصر معاملتها عليها حتى تستورد منها جميع حاجاتها المتزاية ، وتكون خير مرشد لها إلى البضائع المطلوبة . ولما كانت المرأة المصرية تفتتح الآن ميادين في الحياة العامة وتثبت فيها شخصيتها وتبرهن على مقدرتها وكفاءتها ، فإن دونها هذا الميدان الذي تجميع فيه بين الحياة العامة والحياة الخاصة ، فإذا صارت لها يد في توجيه الجمعية التعاونية وأثر في تقدمها ، فاتها تكون قد أفادت أسرتها ، وعانت زوجها بالاقتصاد في نفقات المعيشة ، كما تنفع المجموع في الوقت نفسه باشتراكها في حركة عامة ذات أثر بالغ في حياة الشعب بأكمله .

ابراهيم رشاد

ما تنقضى حسرة متى ولا جزع إلا ذكرت شبابا ليس يرتجع
ما كنت أوفى شبابي كنه غمرته حتى أنقضى فاذا الدنيا له تبع

منصور النمرى

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
إذا أبصر الدنيا آسئل كأنه بما سوف يلقي من أذاها يهتد

ابن الرومي